ذكرى مرور أربعة عشر قرناً على دخول الإسلام في إفريقيا

المؤتمر الدولي

الإسلام في إفريقيا

26-27 نوفمبر 2006

6-7 ذو القعدة 1427 هـ

14

أوراق المؤتمر : الكتاب الحادي عشر



جامعة إفريقيا العالمية



جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ليبيا



وزارة الإرشاد والأوقاف

أنتشار الإسلام في إفريقيا بين السيف والقلم

د. عمر أحمد سعيد
كلية التربية – جامعة إفريقيا العالمية

المقدمة :

يهدف هذا البحث إلي بيان طبيعة إنتشار الإسلام في إفريقيا خاصة غربها وشرقها بين السيف والقلم وذلك لبيان حقيقة دخول الإسلام إلي إفريقيا وانتشاره فيها.

يقصد بالسيف في هذه الدراسة الفتح العسكري والمواجهة العسكرية والغزو العسكري الذي حرص كتاب الغرب علي التركيز عليه في كتاباتهم عن إنتشار الإسلام في المنطقة .

بينما يقصد بالقلم الجانب الثقافي ممثلا في إنتقال الإسلام عن طريق التعليم ممثلا في المساجد والمراكز التعليمية التي قامت في المنطقة وفي جهود العلماء والمسلمين عربا وافارقة وفي المؤلفات والكتب الإسلامية مما يمكن أن يجمل في انتقال الثقافة الإسلامية إلي المنطقة وانتشارها فيها.

تركز الدراسة علي بيان طبيعة الفتح الإسلامي في إفريقيا واهدافه الاساسية ودوره في انتشار الإسلام في المنطقة مقارنا بالدور الثقافي للتجار والعلماء والشيوخ والجاليات والمهاجرين وملوك المنطقة وقادتها وحركاتها..

وقد ركزت الدراسة علي المغرب العربي وغرب إفريقيا ثم شرقها لأنها تمثل مناطق إنتشار الثقافة الإسلامية وهيمنتها علي حياة الناس وتوجيهها لاساليب الحكم واحداث التغيير الاجتماعي الكبير الذي شهدته المنطقة في مراحل الانتقال المختلفة .

تناولت الدراسة الموضوع من خلال خمس نقاط يعتبرها الكاتب جوهرية في تناولــه ، مركزه بصفة خاصة علي حقيقة الفتح الإسلامي عامة وفي إفريقيا بصفة خاصــة وأن العنصر العربي الذي حمل ثقافة الإسلام إلي أهل افريقيا لم يكن غريبــا علـــي القارة ولم يأتها غازيا وأنما كان عنصرا مألوفا لكثير من مناطقهــا وجــاء مــصلحا ممتزجا بالسكان يدعو إلي الخير والفضيلة علي خلافا للروم الــذين جــاءوا اليهــا غازين طمعا في خيراتها واسترقاق انسانها متعــالين مــستكبرين ثــم مــستعمرين متسلطين .

في كل ذلك عمدت الدراسة إلي أيضاح العامل الثقافي ودوره الحقيقي الرائــد فــي نشر الإسلام في المنطقة مقارنا بالعامل العسكري .

***

هنالك نقاط جوهرية لابد من توضيحها ونحن نتناول إنتشار الإسلام في إفريقيا بــين السيف والقلم اهمها .

النقطة الاولي

1- إن طبيعة الفتح الإسلامي ذات صلة عضوية بالدعوة إلي الله التي تنطــوي عليها رسالة الإسلام ، إذ أن الرسول (ص) كان كما أمر يدعو الناس مــن حولــه بالحكمة والموعظة الحسنة [1] كما كانت كتبه إلي قادة الأمم الكبــري مــع الرســل تسبق حركته نحوهم ، كانت تلك سمة ميزت منهج الرسول (ص) مع مابذلــه مــن جهد وماحاوله معهم من هدنة وصلح . جاء فتح مكة بعد أن آذته قريش واصــحابه واجبرته علي الخروج من داره وعذبت أصحابه ومنعتهم من تبليــغ الــدعوة إلــي غيرهم لكل ذلك جاء الفتح مبينا حاسما [2]

1 سورة النحل آية : 125
2 سورة الفتح آية 1

لم يكن ذلك الفتح في طبيعته ومترتباته كغيره من أنواع الفتح التي عرفها التـاريخ ، قهرا واذلالا ودمارا وانما كان العفو والصفح (أذهبوا فأنتم الطلقـاء) لأن الـدعوة هي الأصل ولا مجال فيها للهزيمة والنصر ومترتباتهما الدنيوية هذه هـي طبيعـة الفتح الإسلامي وحقيقته لم يكن القتال اصلا فيه وإنما كان وسيلة لفتح الطريق أمـام الدعوة عندما اغلقها الخصوم .

وعلي هذا النمط جاء فتح فارس والروم وغيرهما بعد أن ارسل الرسول لقادة هؤلاء الأمم يدعوهم إلي الإسلام فوقفوا من رسله موقفا معاديا حيث قتل امبراطور الـروم رسول محمد في بلاطه بيده . فالسيف ليس اصلا في الدعوة إلي الإسلام وإنما القلم هو الاصل وما السيف إلا وسيلة لفتح الطريق أمام القلم حينما يغلـق، إذ القاعـدة الإسلامية الكبري في ذلك(لا أكراه في الدين) [1] والخصومة الدينية في الـدين مرتبطاً بموقف الطرف الآخر منه " لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا إليهم [2] فالأصل فـي الإسـلام القلـم الذي نزلت به أول آية نزلت بها رسالة الإسلام " إقرأ باسم ربك الـذي خلـق " لا السيف الذي جاءت آياته في مواجهة الخصوم الذين يقفون في طريق الدعوة .

النقطة الثانية

إن العلاقة بين جزيرة العرب وإفريقيا حسب مايكاد يجمع عليه المؤرخـون موغلـه في القدم قبل بعثة النبي (ص) بزمن بعيد [3] بل تمتد لدي بعض المؤرخين إلي ما قبل بعثة المسيح عليه السلام بزمن غير قليل لربما يعود إلي زمن الملك سليمان [4] اكثر من ألف عام قبل الميلاد وذلك عن طريق البحر الاحمر الي شرق إفريقيـا [5]

1 سورة البقرة اية 256

2 سورة الممتحنة آية 8

3 ربيع محمد القمر الحاج (الدكتور) الهجرات العربية إلي بلاد النوبة والسودان الشرقي ، دراسات إفريقية العدد 33 2005 ص 39

2 تشير إلي ذلك الروايات التي تتحدث عن هجرة الملكة بلقيس وعودتها إلي منطقة شرق إفريقيا كما في رواية الكبري فيجست الاثيوبية

5 ربيع محمد القمر الحاج المرجع السابق ص 41

أما اتصال العرب بافريقيا عن طريق مصر وبلاد المغرب فقد كان مرتبطا في مجمله بهجرات التجار والجاليات والقبائل العربية بعد ظهور الإسلام بصفة خاصة. ولاتصال العرب بافريقيا وارتباطهم بها قبل الإسلام وبعده أهمية كبيرة في الحديث عن إنتشار الإسلام فيها وذلك لأن العرب عندما جاءوا إلي إفريقيا لم يكونوا عنصرا غريبا كالروم وغيرهم بل كانوا عنصرا مألوفا خاصة في شرق القارة وسودان وادي النيل[1] بل تشير كثير من الدراسات إلي الاصول العربية اليمنية لكثير من شعوب عرب إفريقيا أيضا. [2] ولهذا سهل قبولهم لدي السكان المحليين الذين كانت الدماء العربية والسامية تجري في عروق بعضهم مما ساعد كثيرا في عملية المصاهرة التي كان لها دور كبير في تقبل الإسلام ونشره في إفريقيا . ويقترن بذلك بالطبع الوجود الإفريقي في الجزيرة العربية قدما وتجزرا حيث يشير المؤرخون إلي هذا الوجود المتأصل قبل الإسلام متمثلا في اغربة العرب وبعده في نفوذ الافارقة في الدولة الإسلامية منذ عصورها الاولي [3] مما سهل علي العنصر العربي الامتزاج الذي عرفوا به في جميع انحاء إفريقيا مصاهرة ومعايشة [4] وأثره بصورة مباشرة علي تقبل الإسلام وإنتشاره.

النقطة الثالثة

أنَ نبي الإسلام محمد صلي الله عليه وسلم كان له اهتمام خاص بإفريقيا حيث وجه أصحابه منذ مطلع الدعوة إلي الهجرة إليها عن معرفة تامة بها إذ أشار إلي ارض الحبشة بأنها" أرض صدق " وأن ملكها " لا يظلم عنده احد " مما له دلالاته القوية

---

[1] الدكتور محي الدين صابر العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الأخري تحرير البروفيسور يوسف فضل حسن ، تونس 1985 ص 2

[2] أنظر أدم عبدالله الألوري الإسلام في نايجيريا والشيخ عثمان بن فودي القاهرة 1978 وانظر N.A.S Johnson The Fulani Impire of Sokoto ومهدي رزق الله :حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي الرياض 1997 ص 170

[3] يوسف فضل حسن (بروفيسور) إنتشار الإسلام في إفريقيا ، مرجع سابق

[4] يتضح ذلك في إشارات المؤرخين المتكررة إلي معايشة التجار العرب والجاليات العربية للسكان المحليين في إفريقيا الشرقية والغربية

علي اتجاه الإسلام إلي إفريقيا عند بدايته ، ثم كان من بين كتبه التي وجهها مع الرسل داعيا الناس إلي الإسلام كتابان إلي إفريقيا من بين ستة او سبعة كتب إلي ملوك زمانه أحدهما إلي عظيم القبط بمصر والآخر إلي نجاشي الحبشية وكلاهما كان علي نصرانية أقرب إلي الإسلام حيث وصف القرآن الكريم نصاري نجران الذين هم جزء من نصاري الحبشة بأنهم" يؤمنون بالله العزيز الحميد [1] وكان مؤذنه حتي وفاته (ص) بلال بن رباح إفريقيا من الحبشة الأمر الذي دفع ويدفع تقبل أهل افريقيا واحتضانهم الإسلام مما ساعد ويساعد علي انتشاره فيها .

4- النقطة الرابعة

ان فتح إفريقيا شمالها ومغربها في بدايته يختلف عن بقية انواع الفتح الإسلامي فضلا عن كونه جاء عرضا إذ كان المقصود به اصلا متابعة القضاء علي امبراطورية الروم التي كانت مصر وبلاد المغرب من ولاياتها الهامة وذلك لأن امبراطور الروم كان قد قتل رسول محمد اليه في بلاطه مما عزز من أهمية فتح بلاده أمام الدعوة التي كانت مواجهة الامبراطور لها قاسية ومن ثم كان القضاء علي الصلف الرومي اساسيا بالنسبة لقادة الإسلام مما يقتضي ملاحقة الروم أينما كانوا في مصر وفي المغرب بل في عقر دارهم من اوربا لاحقا في بلاد الأندلس.

النقطة الخامسة

هي أن قادة الفتح امتنعوا عن التوغل جنوبا إلي الدولة المسيحية في بلاد النوبة حين توقف ابن أبي السرح عن التوغل جنوبا فاكتفي بتوقيع اتفاقية البقط [2] ومن السهل بالطبع الربط بين هذا الحدث وبين منع الرسول(ص) اصحابه قتال الحبشة [3] ومن باب اولي فتح بلادهم والنوبة والحبشة كانتا منطقة واحدة في بعض مراحل التاريخ .

1 سورة البروج الآية 4
2 احجم عبدالله التوغل في النوبة المسيحية فعقد معها المعاهدة المعروفة
3 ابن هشام السيرة النبوية (منع محمد أصحابه في قتال الحبشة)

وبالمثل فإن عقبة قائد فتح بلاد المغرب قد توقف عند هضبة التبستي مع امكانية الزحف جنوبا إلي العمق الإفريقي مما يؤكد ان تعقب فلول الروم كان الهدف الرئيسي في ما يسمي بفتح إفريقيا ، يؤيد ذلك اتجاه الفتح فيما بعد شمالا بدلا عن الجنوب بعد عبور المتوسط إلي بلاد الروم بقيادة القائد البربري طارق بن زياد .

يختلف فتح افريقيا من جهة أخري في طول امده حيث استغرق الإستيلاء علي بلاد المغرب أكثر من خمسين عاما في مقابل ثلاثة أعوام لفتح الشام وعامين لفتح مصر وذلك لأن الروم واليهود استطاعوا ان يحركوا البربر سكان المنطقة تحت راية كاهنة يهودية حتي فطن قادة الفتح إلي ذلك وتحولت سياستهم نحو البربر فاكتسبوهم قادة ومقاتلين ضد الروم في وقت وجيز وكان للقلم وللعلم دور أساسي في ذلك حين حلا محل السيف .

علي ضوء هذه النقاط تناقش أنتشار الإسلام في إفريقيا مركزين علي المغرب العربي وغرب إفريقيا بصفة خاصة ثم شرق إفريقيا .

الفتح الإسلامي في إفريقيا

كان شمال إفريقيا قبل الفتح الإسلامي تحت الحكم الروماني ، ولهذا اتجه الفتح – بعد فتوح الشام – إلي متابعة فلول الروم في الجانب الغربي ومن ثم كانت مصر التي كانت ولاية رومانية هدفا للجيوش الإسلامية التي تم لها فتح مصر عام 19هـ / 639م[1]

ومن خلال فتح مصر وجدت الثقافة الإسلامية طريقها إلي شمال إفريقيا حيث اتجه المد الإسلامي إلي جنوب مصر بعدما وقعت في دنقلا اتفاقية(البقط) الشهيرة وأنشأ بموجبها المسلمون مسجدا في بلاد النوبة فكان مركزا لنشر الثقافة الإسلامية في المنطقة .

ولم تقف ملاحقة المسلمين لجيوب الحكم الروماني عند مصر بل اتجهت غربا في محاذاة الساحل الشمالي للقارة الإفريقية .

---

[1] ابو محمد عبدالملك بن هشام : السيرة النبوية ، دار احياء التراث العربي ن لبنان ج 4 ص (159 – 172)

كان الساحل الشمالي لإفريقيا وعلي طول التحامه بالبحر الابيض المتوسط تحت الحكم الروماني المباشر وكانت شعوب هذا الشمال وهي تحت الحكم الروماني كغيرها من الولايات (مصر والشام) مغلوبة علي أمرها وكان بعضها يعيش في ظل هذا الحكم عيشة مباشرة علي طول الساحل وفي المدن والقري القريبة منه والمتناثرة ، وكانت الكثرة الغالبة من هذه الشعوب يلوذ إلي الجنوب في الصحراء أو علي قمم الأطلسي وسفوحه بعيدا عن سلطان الروم المباشر وكانت الروم بدورها لا يعنيها إلا الشريط الساحلي بسهوله الغنية ومواقعه الحربية الهامة المليئة، بالموانيء والثغور علي البحر الأبيض المتوسط وكان لايعنيها الداخل كثيرا إلا بقدر ما يؤمن لها الوجود الساحلي ويجلب لها خيرات الداخل والسودان [1]

كان الهدف من فتح الشمال الإفريقي وبلاد المغرب ، هو القضاء علي جيوب الإمبراطورية الرومانية ولهذا كانت الحرب في هذه المنطقة مع جيوش الروم التي كانت تستعين بقبائل البربر .

وكان دفاع الروم عن بلاد المغرب مستميتا ضد الفتح الإسلامي وذلك لأهمية بلاد المغرب العربي التي كانت من أهم الولايات البيزنطية في عهد الإمبراطور جوستنيان إذ أن طائفة من أباطرة روما كانوا من إفريقيا إما ولادة أو زواجا [2]

بدأ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب عام 21هـ - وكان للقائد عقبة بن نافع الفهري ابن خالة عمرو بن العاص والي مصر الفضل في فتح بلاد المغرب .

بدأ التمهيد لافتتاح إفريقيا بالاستيلاء علي المناطق الداخلية في برقة وطرابلس وتامين أن يكون من نحوها كون أو تحدث غارة فاستولي المسلمون علي ودان وفزان وتولي عقبة ابن نافع منطقة فزان بينما تولي بشر بن أبي ارطأة أمر ودان أوائل عام 23هـ . [3]

1 د. حسن عيسي عبدالظاهر : الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا الرياض 1981م ص 64
2 شكري فيصل : حركة الفتح الإسلامي في القرن الاول للهجرة ، دار القلم ، بيروت 1974م ص (149 - 153)
3 نفس المرجع ، ص 154

وكان بامكان الفتح أن يتجه جنوبا عبر الصحراء في ذلك الوقت المبكر لولا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبي أن يأذن لعمرو بن العاص بفتح إفريقيا كما تكشف الرسالة التالية من عمرو بن العاص إلي عمر بن الخطاب :

" إن الله فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين إفريقيا إلا تسعة أيام فإذا راي أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله علي يديه فعل . [1]

غير أن الإسلام بثقافته لاينتقل عبر الفتح وإنما ينتقل عبر التجارة والدعاة أيضا ، خاصة وان الطريق كان معبدا بين شمال إفريقيا وغربها وذلك بسبب القوافل التجارية التي تنقل البضائع بين بلاد السودان وشمال إفريقيا عبر الصحراء التي كانت تشتمل علي محطات تجارية ، فلابد أن يكون المد الإسلامي والدعوة الإسلامية قد وجدت طريقها في ذلك الوقت المبكر – النصف الأول من القرن الأول الهجري – إلي إفريقيا عبر هذه الطرق.

ويبدو أنْ عقبة بن نافع كان مصرا علي التوغل بالفتح في إفريقيا وأنه كما أدخل حوافر فرسه البحر وقال : اللهم إني أشهدك ألا مجاز ولو وجدت مجازا لاجتزت " فإنه ما كاد ينتهي من فتح بلا فزان حتي سأل أهلها هل من أحد وراءكم ؟ فقالوا له: وراءنا قصر (خاوار) وهو عاصمة بلد (كاوار) فسار إليها وفتحها وبفتحها كان قد وصل إلي التبستي الواقعة شمال حوض تشاد وكان في نيته أن يواصل تقدمه إلي الجنوب وراء بلاد(كاوار) فسأل أهلها هل وراءكم من أحد ، فقالوا لانعلم أحدا فرجع إذ لم يجد خبيرا يرشده [2]

ومع ذلك فقد استغرق الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا زمانا طويلا بسبب انتفاض القبائل البربرية علي الإسلام وذلك لما تتمتع به مناطقهم الساحلية من حصانة طبيعية يصعب معها القضاء علي ثوراتهم قضاء تاما ، ولما يجدونه من دعم من الروم واليهود ، فقد استمر القتال مع الكاهنة اليهودية التي جمعت حولها بعض

---

1 نفس المرجع ، ص 156

2 د. حسن عيسي عبدالظاهر : الدعوة الإسلامية ، مرجع سابق ص67

قبائل البربر زمانا طويلا قبل أن يقضي عليها القائد حسان بن النعمان بدعم من عبدالملك بن مروان عام 81 هجرية [1].

بلغ انتفاض القبائل البربرية أثنتي عشرة مرة[2]. خاض فيها المسلمون حروبا طاحنة معهم، اشترك فيها عدد من قادة الفتح منهم – إلي جانب عقبة بن نافع – معاوية بن خديج، وبشر بن أبي أرطأة، وأبو المهاجر دينار مولي الأنصار الذي قاتل كسيلة ملك البربر، وزهير بن قيس البلوي وأخيرا حسان ابن النعمان الذي ولي المغرب عام 73هـ[3].

وقد استطاع بعض قادة المسلمين في بلاد المغرب ان يعرفوا طبيعة البربر الذين يستفزهم التحدي فكان موسي بن نصير مثلا يشتري البربر ويستفهم إذا كانوا من أسر كريمة يعتقهم ومن ثم ينخرطون في جيشه قوادا، وحين كان الولاة يحسنون السير بالبربر ياخذونهم باليسر كما فعل ابو المهاجر، كان البربر يقبلون علي الإسلام أو يقبلون علي نصرة المسلمين فإذا آل الأمر إلي نوع من التحدي بين البربر والعرب كالذي حدث بين عقبة وكسيلة غضب البربر لأنفسهم [4].

ولهذا طال أمد الفتح مع هذه القبائل بتغير الولاة المسلمين علي المغرب فإذا كان فتح الشام قد استغرق ثلاثة اعوام وفتح مصر عامين فقد استغرق فتح المغرب العربي حوالي خمسين عاما.

وحين أطمأنت هذه القبائل لهذا الدين واعتنقته طوع ارادتها كانت القوة الضاربة التي انتقلت بالفتح إلي بلاد الاندلس كما كانت الوسيلة الرئيسية التي انتقل بها الإسلام والثقافة الإسلامية إلي غرب إفريقيا، إذ أن قبائل صنهاجة – خاصة لمتونه وجداله – هي التي اتصلت بالممالك الوثنية في المناطق التي يرويها نهر السنغال

---

1 شكري فيصل : حركة الفتح الإسلامي، مرجع سابق ص 175

2 توماس ارنولد الدعوة إلي الإسلام، ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرون، الطبعة الثالثة القاهرة 1970 م ص 339

3 شكري فيصل، مرجع سابق ص (153 – 175)

4 شكري فيصل : حركة الفتح الإسلامي، مرجع سابق ص 175

والنيجر وادخلت الإسلام إلي تلك المنطقة ، إذ كانت أكثر القبائل البربرية تحمسا إلي نشر الإسلام خاصة في عهد المرابطين الذي نتناوله في مكان آخر من هذا البحث.

ولابد في الحديث عن الفتح الإسلامي في شمال إفريقيا وبلاد المغرب من الإشارة إلي طبيعة الفتح وآثاره في المنطقة ، ذلك أن فتح شمال إفريقيا كان يستهدف الروم كما ذكرنا ومن ثم لم يكن للمسلمين من أهل المنطقة من البربر غير استخدام الروم لهم وتحريضهم ضد الفاتح الجديد الذي حاول الروم تصويره بطريقة تنفر البربر منه ، ولهذا ما أن تعرف البربر علي حقيقة الإسلام حتي اعتنقوه وانقلبوا فاتحين لأرض الروم بقيادة القائد البربري العظيم طارق بن زياد ثم أخذوا علي عاتقهم مسئولية نشر الإسلام جنوبا إلي بلاد السودان.

فالطابع المميز للفتح كان للدعوةإلي الإسلام ونشر العدل والفضيلة علي عكس ما كان النظام الروماني القاهر ، الذي كان يستنزف خيرات إفريقيا محتميا بالقلاع والثغور والمرتفعات الساحلية الحصينة ، مسخرا المواطن الإفريقي لمصالحه ومنافعه .

كان الفاتح الإسلامي إذن ذا طابع دعوي ينقل رسالة الإسلام وثقافته إلي أهل تلك المنطقة ومن ثم اختلط العرب المسلمون بالبربر وانصهروا فيهم مكونين بذلك أمة إسلامية تدعو إلي الخير وتأمر المعروف وتنهي عن المنكر .

دخل الفاتح الإسلامي إفريقيا يحمل رسالة الإسلام من أول يوم وأخذ يبلغها وينشرها مقيما ومرتحلا مجاهدا وداعية ، بالكلمة والقدوة الحسنة في المسجد والسوق والحملة العسكرية ، حتي طرق الإسلام كل إذن وجاب الصحراء ودخل المدينة واعتلي الجبل وعايش الرعاة ودخل القصور ووضع قدمه علي ساحل المحيط يعلن هدفه وهو الا يعبد إلا الله وحده[1]

---

1 د. حسن عيسي عبدالظاهر : مرجع سابق ، ص67

كان الفاتح ذا طابع ثقافي مميز ارتبط بالمسجد والعلم ، حيث اقيمت حلقات العلم ودروسه حول القرآن الكريم وانشئت الكتاتيب منذ ان وطئت قدم المسلمين أرض إفريقيا يعلمون صبيان البربر القراءة والكتابة وحفظ القرآن وعلومه ، فهذا أحد تلاميذ هذه الكتاتيب غياث بن ابي شيبة الذي أصبح عالما فيما بعد يسجل من ذاكرته أن سفيان بن وهب صاحب رسول الله صلي الله عليه وسلم كان يمر عليهم وهم غلمة في القيروان فيسلم عليهم في الكتاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه .

فالفتح الإسلامي في شمال إفريقيا وبلاد المغرب كان فتحا ثقافيا للقلم فيه الدورالأساسي في نشر الإسلام بل كان ثورة علمية حولت اهل المنطقة إلي علماء وائمة قادوا المسيرة العلمية وحملوا راية الثقافة في المنطقة وقاموا بدورهم خير قيام في حمل راية الإسلام وثقافته فيما بعد إلي آفاق أرحب في أوربا وإفريقيا .

كما كان الفتح الإسلامي في بلاد المغرب ذا طابع عمراني حضاري حيث أنشا المسلمون المساجد والمدن والقري والمراكز العلمية والتجارية في المنطقة وأقاموا نظاما إداريا مميزا ، فاقيمت الدواوين التي انخرط فيها أهل إفريقيا مثل ديوان الجند وديوان الخراج وديوان الرسائل وغيرها فانتقلت ثقافة الإسلام بنظمها المختلفة إلى أهل الشمال الإفريقي وبلاد المغرب وصارت فيما بعد نموذجا احتزته إفريقيا في انظمة تعليمها وتخطيط مدنها ونظام دولتها ، وفي نظامها الاجتماعي وفي عاداتها وتقاليدها وقيمها واعرافها ، فالفتح الإسلامي لبلاد المغرب كان ثورة كاملة انتظمت مجالات الحياة المختلفة أصبح المغرب بسببها مركزا هاما من مراكز الإسلام وثقافته التي انطلقت شمالا إلي بلاد الروم وجنوبا الي بلاد السودان عقائد ونظما ومعارف وتقاليد وعادات انتظمت المجتمعات التي انتقلت إليها فوجهت مسيرتها في الحياة ورسمت خطوات تاريخها وارست قواعد تراثها وجذور ثقافاتها .

الفتح والدعوة

لعل مما يميز الإسلام أنه من الصعب الفصل فيه بين رجل الدولة والقائد والجندي والعالم والتاجر وغيرهم في مجال الدعوة إليه ونشر ثقافته إذ أن مهمة نشر الدين

في النظام الإسلامي تقع علي عاتق الجميع وذلك لما تتميز به شخصية المسلم من صدق الإيمان والاخلاص له والالتزام بمبادئه وقيمه التي تعتبر الدعوة إليها واجباً علي الفرد ، هذا فضلا عن تقاليد الإسلام ونظمه الدينية والاجتماعية تعتبر في حد ذاتها دعوة صريحة لما فيها من عناصر الجذب والاغراء للشعوب التي يدخلها الإسلام .

والمقصود بالدعوة ما قام به السلمون علي اختلاف طبقاتهم وحرفهم من نشر للإسلام إما بعرضه علي الشعوب التي يتصلون بها وإما باعطاء القدوة الحسنة والنموذج الصالح فيالحياة فيتأثر بهم من حولهم فيعتنقون دينهم ويسلكون مسلكهم في الحياة ، بهذا المفهوم فقد انتقل الإسلام وثقافته بعد الفتح الإسلامي من شمال إفريقيا إلي بلاد السودان نقلته سمعة الدولة التي سادت في شمال إفريقيا عبر نماذج قادتها وولاتها وعلمائها وذلك بطريق الاتصال المباشر عبر طرق التجارة التي كانت نشطة منذ دخول الإسلام بعد الفتح من وإلي بلاد السودان وغرب إفريقيا أن التأثيرات الإسلامية والثقافية والاقتصادية والبشرية في منطقة غرب إفريقيا ترجع أصولها في معظمها إلي الشمال الإفريقي وإليه تنسب وتدين بإسلامها وحضارتها وأن ارتباطها به شكل تاريخ السودان وكان المغرب الإسلامي مسرحا لدول إسلامية اشتركت في تكييف الحضارة الإسلامية الخاصة وقامت به بالأندلس دول وخلافات مثلت شقا من العالم الإسلامي كان له أثره الأكبر في نشر الإسلام وحضارته في السودان [1] .

وكان دور الدعوة الإسلامية في ذلك كبيرا جدا وذلك لما قدمته من نماذج صالحة للتعامل مع أهل هذه المنطقة خاصة قبائل البربر التي كانت لها تجارب قاسية مع الحكم الروماني الذي سبق الحكم الإسلامي فقد كانت نظرة الرومان لشمال إفريقيا والمغرب العربي نظرة استعلاء ومصلحة وتسخير [2] . وكان الرومان يعتصمون

---

[1] حسن عيسى عبدالظاهر ، الدعوة الإسلامية ، مرجع سابق ص 75

[2] محمد شيث خطاب ، قادة الفتح الإسلامي في المغرب العربي دار الفكر 1996م ص 30

بالشريط الساحلي حيث ترسو سفنهم وأساطيلهم الحربية ينقلون خيرات إفريقيا من الزيت والفستق والزعفران واللوز [1] . إلي بلادهم هذا فضلا عن استرقاق الأفارقة وتجنيدهم ، أما قادة العرب فقد أعطوا النموذج الصالح من حيث إخلاصهم لعقيدتهم وحسن تعاملهم مع أهل المنطقة التي يدخلونها لا لأجل المصلحة ولكن لأجل نشر العقيدة وبث الخير والفضيلة ولعل قائد الفتح الإسلامي في بلاد المغرب عقبة بن نافع كان خير نموذج لذلك القائد من خلال صدقه في نشر الدعوة وايمانه العميق بدوره العظيم ، فهو ليس جنديا مقاتلا من أجل النصر والزعامة وإنما هو داعية مبلغ يعتبر نفسه مسئولا أمام الله عما يقوم به من واجب التبليغ ونشر الدين والعقيدة والخير .

وقف قائد الفتح عقبة بن نافع رضي الله عنه علي ساحل المحيط (بعد أن دانت له بلاد المغرب) وأدخل قوائم فرسه في المحيط إلي صدره وقال : " اللهم إني أشهدك أن لامجاز ولو وجدت مجازات لاجتزت إنك تعلم أني أطلب السبب الذي طلبه وليك ذو القرنين ألا يعبد إلا الله ، اللهم إني أشهد أني قد بلغت المجهود ولولا هذا البحر امضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتي لايعبد أحد من دونك [2].

هذا نموذج للقائد الأعظم للجيش الإسلامي من الصعب جدا أن نجد له مثيل في غير الإسلام وذلك لأثر العقيدة القوي في شخصية المسلم ، وقد سبق أن بينا أن عقبة قد أوغل جنوبا في الصحراء في اتجاه بلاد السودان لولا أنه عدم المرشد لمضي إليها.

بمثل هذا الإيمان القوي والعقيدة الراسخة كانت شخصية المسلم تتميز ومن هذه العقيدة الراسخة كانت تنطلق أفعاله ويتشكل سلوكه وهذا موسي بن نصير القائد الإسلامي العظيم يجند نفسه بعد الفتح للدعوة ويسلم علي يديه خلق كثير من أهل

---

1 أبو عبدالله محمد بن احمد المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، مكتبة مدبولي ، القاهرة 1991م ص 339

2 حسن عبدالظاهر ، مرجع سبق ذكره ص 66

المغرب[1] ، وكان كما ذكرنا من قبل يشتري الاسري من البربر ويعتقهم بحسن إسلامهم وبلاؤهم في الدفاع عن العقيدة والدين .

يمثل هذا العمل استطاع قادة الدعوة إلي الإسلام أن ينشروه بين قبائل البربر ويجعلوا منهم قوادا وفاتحين ودعاة انطلقوا شمالا إلي أوربا وجنوبا إلي مجاهل إفريقيا يحملون ثقافة الإسلام ووجهه الناصع إلي إفريقيا الوثنية .

دور القلم وانتشار الإسلام في إفريقيا :

حفلت منطقة شمال إفريقيا بالعديد من العلماء والدعاة الذين صاحبوا الفتح فقد خلف كل من عقبة وموسي أعدادا من العلماء والدعاة في مناطق الفتح يعلمون الناس أمور دينهم وكان الخلفاء في دار الخلافة يحرصون علي إرسال الدعاة والعلماء إلي مناطق الفتح في شمال إفريقيا ، فهذا عمر بن عبدالعزيز يرسل عشرة من كبار التابعين ممن عرفوا بالعلم والفضل إلي بلاد المغرب لتعليم الناس أمور دينهم منهم اسماعيل بن عبيد الأنصاري الذي أسس جامعة الزيتونة واستشهد في فتح صقلية ومنهم أبوالجهم عبدالرحمن بن رافع التنوخي أول من ولي قضاء القيروان ثم أبوعبد الحميد إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر الذي ولاه الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز علي بلاد المغرب وكان من أهل الدين والفضل اقام العدل والحق وعلم الناس دينهم وأسلم في عهده خلق كثير من قبائل البربر[2] .

هؤلاء الدعاة كانوا يمثلون علماء المنطقة يتولون أمر العلم في مساجدها ومراكزها وتخرج علي أيديهم نفر كريم من علماء المنطقة منهم أسد بن الفرات الذي مر ذكره ومنهم عبدالرحمن بن سيادة وغيرهم من علماء إفريقيا الذين قامت علي اكتافهم مراكز التعليم في القيروان والزيتونة وأغمات وازدهرت بهم الثقافة الإسلامية في المنطقة التي أصبحت فيما بعد مصدر إشعاع ثقافي نقل الثقافة الإسلامية عبر

---

1 ابن كثير الحافظ ، البداية والنهاية مكتبة النهضة بدون ج 9 ص 171

2 ابن كثير ، نفس المرجع ، ص (171 – 173)

القوافل جنوبا إلي غرب إفريقيا التي انتقلت إليها مؤلفات العلماء المغاربة وجهـودهم فكانت مصدرا هاما من مصادر الثقافة الإسلامية في تلك المناطق.

الدعوة سابقة للفتح في إفريقيا

تحدث المؤرخون كثيرا عن آثار المسلمين الذين انتقلوا منذ عصر مبكر جدا داخـل بلاد السودان إلي الممالك الوثنية وذلك قبل حركة المرابطين التي نـشرت الإسـلام في المنطقة بزمن غير قليل.

فهنالك جماعة من الأمويين انتقلت إلي منطقة كانم منذ بدايـة النـصف الأول مـن القرن الثاني للهجرة الثامن للميلادي واستقرت في المنطقة[1] . وهذا يعنـي بـدون شك انتقال الإسلام مع هذه الجماعة في تلك الفترة المبكرة 133 هـ / 750م ولذلك لايكون غريبا أن نجد أن (أومي جلمي) أول ملك من ملوك المنطقة يعتنق الإسلام علي يد داعية إسلامي في القرن الحادي عشر الميلادي[2] . كما يـروي البكـري المتوفي عام 1067م أن بني أمية كانوا قد بعثوا بجيش إسلامي لفتح بلاد الـسودان واستقر افراد هذا الجيش في بلاد غانة [3]. ووفقا لرواية البكري فإن الإسلام يكـون قد دخل إلي منطقة السودان العربي في بداية النـصف الأول مـن القـرن الثـاني الهجري الثامن الميلادي ،. وإذا كانت بلاد المغرب قد دانت لبني أمية منذ النـصف الثاني من القرن الأول الهجري فليس من المستبعد أن تكون رواية البكري صـحيحة ، ومهما يكن من أمر فإن وجود المسلمين في مدينة غانة كان كبيرا ومؤثرا داخـل المملكة الوثنية ، فازدادت بذلك هجرات العلماء إلي بلاد السودان في القرون التـي تلت الفتح ثم تتابعت الحركات الإسلامية .

يذكر البكري الذي توفي قبل دخول المراطبين إلي غانة بعشرة أعوام علـي الأقـل أن مدينة غانة مدينتان سهليتان أحداهما المدينة الإسلامية التي يـسكنها المـسلمون

---

1 الدكتور زين العابدين السراح دولة كانم الإسلامية من القرن التاسع الميلادي إلي القرن الرابع عشر الميلادي رسالة ماجستير غير منشورة جامعة القاهرة 1975م ، ص 55

2 المرجع السابق ص 61

3 ابو عبدالله البكري ، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب ، مرجع سابق

وفيها إثناء عشر مسجدا أحدهم يجمعون فيه ولها الأئمة والمؤذنــون وفيهــا فقهــاء وحملة علم وقد أضفت هذه المدينة طابع الإسلام ونشرت دعوته إذ أن فــي مدينــة الملك الوثني وهي القسم الثاني من غانة مسجد يصلي فيه مــن يقــدم عليــه مــن المسلمين ويصف البكري الملك الوثــني بانه كان محمود السيرة محبا للعدل مقربا للمسلمين بل إن تراجمه وصاحب بيت ماله وكثير من وزرائه كان من المسلمين[1].

وقد ذكر الدكتور يوسف فضل أن إدخال حرفة الكتابة وتجارة الكتاب كان من أكبــر إسهامات الإسلام في المنطقة مما كان له أثره الكبير في لفت أنظار أهــل المنطقــة ملوكا ورعية إلي هذه الثقافة الجديدة بحضارتها الراقية[2] .

من خلال ذلك يتضح أن ثقافة الإسلام كانت راسخة الأقدام في تلــك الأمبراطوريــة الوثنية وأن دخول المرابطين إليها لم يعد أن يكون نقلا للقيادة مــن الــوثنيين إلــي المسلمين.

ومن ذلك يتضح ايضا أن ثقافة الإسلام وحضارته كانت ثقافــة وحــضارة جذابــة جعلت الملوك الوثنيين يتجهون إليها ويعملون بمقتضاها دونما فتح أو قهر ، ويؤكــد ذلك ايضا أن طريق الدعوة بالقدوة الحسنة والنموذج الصالح هــو أقــوي الطــرق وأنسبها لأهل الفطرة السليمة ، ولذلك لانعجب عندما يحدثنا المؤرخون عــن عــدد كبير من ملوك الممالك الإفريقية كانوا قد اعتنقوا الإسلام عن طريق الــدعاة وهــو بدون شك طريق الثقافة الإسلامية والحضارة كان للقلم دور رائد فيه .

فقد اعتنق (برامندانا) ملك مملكة مالي الإسلام عــن طريــق الــدعاة ، واعتنــق الإسلام -زاكوسي ، ملك صنغي [3] . عام 1010م و(كمبورو) ملك جني عــام 1200م [4] . ثم إن ملك مملكة (كوكو) و (قــو Gau) [5] ، اعتنــق أيــضا

[1] البكري المغرب مرجع سابق ص 174- 175

[2] Yusuf Fadl Hassan : Som Aspects of the Role of Islamic in African History دراسات إفريقية العدد 24 ديسمبر 2000

[3] د. علي ابوبكر ، الثقافة العربية في نيجيريا ، القاهرة 1972 مص 101

[4] توماس ارنولد مرجع سابق ص 354

[5] Ajayu J.A.F & Crowder : History of West Africa V: 1, London 1976 P. 145

الإسلام عن طريق الدعاة كما أن مير (كانو) ساركن (ياجي) وأمير (كاسـينا) قد اعتنقا الإسلام عن طريق الدعاة .

ومع إن اليهود والنصاري قد سبقوا المسلمين إلي هذه القارة في العصر الرومـاني ، حيث كانوا يتاجرون في الذهب وغيره ، فلم يخلفوا في إفريقيا أي أثر لثقافتهم ممـا يدل علي أن ثقافة الإسلام عالية التأثير علي السلوك سريعة التغلغل إلي النفوس .

دور التجارة في انتشار الإسلام في إفريقيا :

وقد كان للتجارة دور كبير في نقل الثقافة الإسلامية إلي منطقـة غـرب إفريقيـا ، وذلك لأن التجارة كانت قد تطورت تطورا هائلا بعد الفتح الإسلامي لشمال إفريقيـا وبين غربها عبر الصحراء .

وكان من أبرز معالم هذا التطور ما تم من تيسير الطرق وارتباط شخصية التـاجر بالإسلام، من ذلك ما قام به حفيد الفاتح عقبة وهو عبدالرحمن بن حبيب بن عبيـده بن عقبة بن نافع أواخر الحكم الأموي 116هـ ، من حفر سلسلة من الآبار تـصل بين واحات إفريقيا وبين مدينة (أودغست) [1] ، مما مهد الطريق للقوافل التجاريـة للتوغل في غرب إفريقيا عبر الصحراء بعد أن كانت محصورة علي الساحل[2] . فالناقل متمثل في حمل الثقافة موجود ، والطريق ممهد منذ عـصر مبكـر ، ممـا ساعد علي دخول الثقافة الإسلامية إلي غرب إفريقيا بصفة عامة ومنطقة الـسودان الغربي بصفة خاصة.

كان التاجر المسلم داعية لدينه يجمع بين دعوته وتجارته بالكلمة والسلوك الـسوي وحسن الصلة بمن يتعامل معهم فيثقون به ثقة تنفـي عنـه أي اتهـام لـه بـدوافع استغلالية أو شريرة إذ كثيرا ما يحاط الأجنبي بالشك والريبة ولكن التاجر المسلم إذ يكون غريبا فإن سلوكه وخبرته وخلقه الإسلامي كل هذا يزيل عنه تلـك الـشكوك

---

1 أحمد الياس حسين ، العلاقات بين المغرب الاقصي وبلاد السودان ، القرن الثاني الهجري ، دراسات إفريقية العدد 34 ، ص 107

2 د. حسن عيسي عبدالظاهر ، الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا وقيام دولة القرن الثاني عشر الهجري التاسع عشر الميلادي ، إدارة الثقافة والنشر ، جامعة الإمام محمد بن مسعود ، الرياض 1981 ص 79

ويوفر له القبول الحسن ، إذ ما يكاد يدخل قرية وثنية فسرعان مايلفت إليه الأنظار بكثرة وضوئه وانتظام أوقات صلاته وعبادته التي يبدو فيها وهو خاشع يناجي ربه وخالقه ، ويضفي منظره في سجوده وسكينته عليه من المهابة والجلال مايحرك فطرة الغفريقي الوثني ، هذا فضلا عما يتحلي به من سمو عقلي وسلوك حضاري يفرض علي الوثنيين احترامه والثقة بـه ويجذبهم إلي الاقتداء به وتقليده[1] .

يكشف هذا النص الذي يتناول فيه توماس أرنولد دور التاجر المسلم في الدعوة الإسلامية في إفريقيا عن كيفية انتقال الثقافة بشكلها العام وعناصرها المختلفة مثل العقائد والنظم والعادات والقيم إلي المجتمعات غير المسلمة في إفريقيا ، وقد ركز ارنولد بصفة خاصة علي أثر الثقافة المنعكس علي السلوك مما يعد نموذجا حيا لكيفية دخول الثقافة الإسلامية في إفريقيا عبر واحدة من أهم الوسائل التي انتقلت بها إلي القارة السمراء وهي التجارة .

المنطقة دينا للتجار والعلماء وإنما أصبح دينا عاما يختاره ملوك الممالك الوثنية ليمنحهم القوة الروحية[2] .

يقول الدكتور حسن عيسي عبدالظاهر في حديثه عن اتجاهات انتشار الدعوة في امبراطورية مالي : أما عن الاتجاه الأول فيتضح إنتشار الدعوة الإسلامية فيمالي بوجود إسلامي فيها يتمثل في وجود بعض الدعاة والفقهاء والتجار المسلمين والحكام فيها أما أغلب الرعية فكانوا علي الوثنية[3] .

ودخول الملوك في الإسلام يشير إلي وجود الثقافة والحضارة الإسلامية عند الخاصة ، وهذا يعني وجود الإسلام وحضارته وثقافته في المنطقة .

وكان هذا الوجود قديما يشير إلي ذلك ابن خلدون (وكان ملوك مالي قد دخلوا الإسلام منذ زمن قديم) وهذا الوجود كان له طابعه المميز الراقي الذي يجذب إليه

---

1 توماس ارنوك ، الدعوة إلي الإسلام ، ترجمة حسن ابراهيم وآخرون الطبعة الثانية القاهرة 1970م

2 Ahistory of Africa .P 194 :

3 د حسن عيسي عبدالظاهر ، مرجع سابق ذكره ص 102

الأنظار خاصة القوم وعامتهم مما يدعوهم إلي تقليده فضلا عن امتزاج حملته بالشعب بالمصاهرة والاختلاط وذوبانهم في المجتمع بسلوك ممتاز كان له أثره المبكر خاصة في الطبقة العليا مما اقتضي إسلام أول من اسلم من الملوك فيها علي يد داعية من هؤلاء فيما يرويه لنا البكري ، عرف ملك مالي بالمسلماني لأن بلاده اجدبت عاما من بعد عام استسقوا بقرابينهم البقر حتي كانوا يفنوها وكان عندهم ضيف من المسلمين يقريء القرآن ويعلم السنة فشكا إليه الملك ما دهمهم من ذلك فقال له : ايها الملك لو آمنت بالله تعالي ، وأقررت بوحدانيته وبمحمد صلي الله عليه ومسلم واقررت برسالته واعتقدت شرائع الإسلام كلها لرجوت لك الفرج فيما أنت فيه وحل بك وأن تعم الرحمة أهل بلدك وان يحسدك علي ذلك من عاداك وناوءك ، فلم يزل به حتي أسلم وأخلص نيته وأقرأه من كتاب الله ما تيسر عليه وعلمه من الفرائض والسنن ما لا يسع جهله ثم أمهله إلي ليلة جمعة فأمره فتطهر طهرا سابغا وألبسه ثوب قطن كان عنده ، وبرزا إلي ربوة من الأرض فقام المسلم يصلي والملك عن يمينه يأتم فصليا — من الليل ما شاءه الله والمسلم يدعو والملك يؤمن فما انفجر الصبح إلا وعمهم الله بالسقيا ، فأمر الملك بكسر الدكاكير (الأصنام) وأخرج السَحَرة من بلاده وصح إسلامه وإسلام عقبة وخاصته وأهل مملكته المشركون فسموا ملكهم منذ ذلك الوقت بالمسلماني[1] .

بل أن الإسلام قد توغل بهذه الطريقة إلي أقصي النوب وسط الأدغال في بلاد يوربا حيث كانت مدينة Ile Ife إلي ايفي بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر بواسطة أحد العلماء المهاجرين[2].

ومن ذلك يتضح مكانة العلماء الكبري في الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا أولئك الشيوخ الذين يهاجرون بعلمهم وكتبهم إلي أصقاع إفريقيا ويعيشون بين الشعوب الإفريقية حتي يؤثروا فيهم ذلك التأثير الذي يصل إلي حد الإعجاز مما يكسبهم

---

[1] د.حسن عيسي عبدالظاهر ، مرجع سابق ذكره ص 101

[2] تسيم الصبا في اخبار الإسلام وعلماء بلاد يوزبا القاهرة بدون تاريخ ص 36 - 37

احترام أولئك الملوك وتقديرهم فهذا ملك مملكة كانم بعد أن اسلم علي يد الداعية السملم محمد بن ماني أو (الهادي العثماني) يصدر مرسوما ملكيا عرف بـ
(محرم) عام 1086م يمجد فيه العلماء ويعظم دورهم في تعليم الإسلام ونشره سار علي نهجه ملوك كانم (مايات) فيما بعد [1].

ولايفوتنا أن نذكر أن هؤلاء العرب المسلمين الدعاة ومن بعدهم أهل افريقيا كانوا حملة حضارة لها نصيب من كل فن في الأدب والطب والعمارة التي تمثلت في بناء المساجد بأشكالها الجذابة الراقية والتي لها طابع القوة والدقة والرقي فكانت ابداعاً هندسيا فريدا مما استقطب المزيد من المريدين والطموحين في الإنتماء لأهل هذه الحضارة الجديدة الباهرة ، وكان الحكام والزعماء أول من أخذ بهذه كله واعتنق الدين الإسلامي[2] .

وعندما رسخت أقدام الحكام في بلاد السودان في الإسلام تقربوا أكثر إلي العلماء وطلبوا المزيد منهم وأصطحبوا اعدادا كبيرة منهم في رحلات العودة من الحج كما فعل منسا موسي[3] . واعتمدوا عليهم اعتمادا تاما في إدارة شئون بلادهم التي قادها أبناء تلك المناطق مما أسهم بصورة جلية في إنتشار الإسلام سلميا في المنطقة

المساجد وطريق القلم في إنتشار الإسلام

ارتبطت الدعوة إلي الإسلام منذ فجرها الأول بالمسجد وذلك باعتباره أداة الثقافة ، وأداة الإعلام ، وأداة التعليم ، والأداة الاجتماعية لتقوية الصلة بين جماعة المسلمين ، وإذا كان الرسول صلي الله عليه وسلم قد شرع بعد هجرته إلي المدينة في بناء مسجده كاول عمل له بها ، فإن هذا التقليد قد اصبح سنة تتبعها جماعة المسلمين أينما حطت رحالها .

---

[1] د. السراج دولة كانم مرجع سابق ص 60 - 65

[2] نفس المرجع ص 75

[3] السعدي ، تاريخ السودان ، مرجع سابق ص 51

وكما أقام عمرو بن العاص مسجده بالفسطاط بمصر عقب الفتح ، فإن قـادة الفـتح قد اتبعوا هذا التقليد في شمال إفريقيا وبلاد المغرب ، فكان أول مـسجد يبنـي فـي المغرب العربي هو مسجد القيروان .

يقال أن البدء في اتخاذ القيروان مركزا للدولة الإسلامية في بـلاد المغـرب كـان حوالي سنة 45- 46هـ بواسطة معاوية بن خديج في عهد معاوية بن ابي سـفيان([1]). ثم استكمل بناء المسجد والمدينة عقبة بن نافع عام 50هـ والواقع أن عقبة كـان قد اختط مدينة القيروان وهي أول مدينة إسلامية بنيت في إفريقيا ، والقيروان كلمـة فارسية معناها مقر العسكر وموضع اجتماع الناس للحرب ، بني عقبة مسجده الذي يحمل اسمه أولا ثم بني حوله دار الإمارة واسوق ، ثم التفت حولها الأحياء السكنية وكانت المدينة بذلك تمثل طابع المدينة الإسلامية الذي اصبح نموذجـا لكثيـر مـن المدن في المنطقة وفي المنطقة التي تليها من بلاد السودان .

اختار عقبة لمدينته موقعا حصينا بعيدا عن الساحل في منطقة تلتقي حولها طـرق القوافل ، وكانت بذلك مركزا عسكريا حصينا كما كانت مركزا ثقافيا وتجاريا جـذابا مما كان له اثره في جذب القبائل البربرية للاستيطان بها ، والتمـازج مـع القبائـل العربية فيها فكان لذلك اثره الكبير في نشر الثقافة الإسلامية ، اما مسجد عقبة الـذي يقع في وسط المدينة فقد كان مركزا ثقافيا كبيرا جذب إليه العلماء الأئمة والطـلاب حتي أصبح جامعة كبري في المغرب العري بثت اشعاعها الثقافي شمالا إلي اوربـا وجنوبا إلي بلاد السودان وحذت حذوها جامعات إفريقية وراء الصحراء في تمكبتو وجني وغيرهما كثير .

وبعد مسجد القيروان كانت قد انشئت مساجد أخري كثيرة في شمال إفريقيا فقد بنـي عقبة مسجدا في منطقة تسمي مسابه ، وبني موسي بن نصير مسجدا في أغمات ثم تلي ذلك إنشاء مدينة فاس ، ومسجد الزيتونة ، وتحولـت أغلـب البيـع والمعابـد الرومانية إلي القبلة مساجد متعددة في منطقة المغرب العربي .

---

[1] شكري فيصل حركة الفتح الإسلامي مرجع سابق ، ص 160

وكان لهذه المساجد باعتبارها مراكز ثقافة كبري في المنطقة ، اثره الكبير في بعث الحركة الثقافية الإسلامية في المنطقة فكانت منطقة جاذبة للعلماء مـن المـشرق ، حتي أن مذهب الإمام مالك قد انتشر بالمغرب منذ قيامه بالمشرق ، وكـان نتـشاره بافريقيا ايام حكم الأغالبة[1] في مطلع القرن الهجري الثاني وفي عهدهم أقبل علـي المغرب العربي أكثر من ثلاثين فقيها كلهم لقي مالكا ونقل عنهم ، كلهم كان لهم اليد الطولي في نشر المذهب في الشمال الإفريقي كله ثم في بلاد السودان ، وقـد كـان الإمام مالك رضي الله عنه يعني بتلاميذه من تلك المنـاطق ويهـش لهـم ويوجـه المتعلمين إليهم وكان بعض أتباعه من المغاربة يأتون في بعض المـسائل فيحـيلهم علي البهلول بن راشد وابن فروخ[2] .

ومن بين العلماء المغاربة الذين تلقوا العلم في القيروان ثم رحلوا إلي المشرق العالم والداعية والقائد المغربي اسد بن الفرات الذي ارتحل إلي المدينة وأخذ عن مالك ثـم ارتحل إلي العراق فأخذ عن اصحاب ابي حنيفة واصبح من علماء المغرب الأفـذاذ فألف كتابه (الاسدية) وكتابه المشهور (المدونة) ، وتـولي قـضاء القيـروان ، وتلقي العلم منه خلق كثير بينهم العالم المشهور سحنون ، الذي عـين أميـرا علـي الجيش الذي غـــزا صقلية وهناك استشهد سنة 213 هـ / 828م [3].

هذا الجانب يعتبره كاتب هذا البحث من أهم العوامل في إنتشار الإسلام في إفريقيـا جنوب الصحراء لأن تقاليد العلم والتعليم والتأليف والمشيخة قـد انتقلـت برمتهـا جنوبا بواسطة علماء أفارقة أرسو قواعد التعليم والمدارسة والتاليف في كثيـر مـن مناطق إفريقيا .

---

1 انتقل الاغالبة في اواخر العصر الاموي بالحكم في المغرب الاقصي واتخذوا القيروان عاصمة لهم
2 حسن عيسي عبطالطاهر الدعوة الإسلامية ، مرجع سابق ص 80
3 نفس المرجع السابق ص 70

تعد الحركات الإسلامية التي قامت في بلاد المغرب امتـدادا للفـتح الإسـلامي للمنطقة من حيث أنها حركات قادها أهل المنطقة بعد أن انتقلت إلـيهم الثقافـة الإسلامية وتأثروا بتقاليدها وأعرافها ومن ثم حملوا راية الدعوة إلـي الإسـلام ونشره ومن حيث أنها أكملت ما بداه الفتح الإسلامي بتعزيز قوته وتعميق ثقافته ثم الانتقال به إلي نطاق أوسع ، ومن حيث أنها كانت تمثل العامل المباشر فـي انتقال الإسلام وثقافته إلي إفريقيا جنوب الصحراء.

فنحن عندما نتعرض لحركتي المرابطين والموحدين في المنطقة كأنمـا نتنـاول حلقة الوصل بين دخول الثقافة الإسلامية إلي شمال إفريقيـا وبـلاد المغـرب ودخولها إلي غرب إفريقيا وبلاد هوسا وغيرهـا كمـا أن تجربـة المـرابطين والموحدين تعتبران التجربتين الإفريقيتين الرائدتين اللتين سارت علي نهجهمـا تجارب الأفارقة مع الإسلام وثقافته في بلاد السودان ، ونهجت نهجهما في نشر الإسلام في المنطقة .

وقبل أن نتناول هاتين الحركتين الكبيرتين لابد من إشارة عاجلة وعامة إلي مـا إشار إليه أبن خلدون في الجزء السادس من كتاب العبـر وهـو دور البربـر والملثمين في توجههم بعد الفتح إلي إقامة نماذج من الأنظمة المستقلة في منطقة الصحراء وما وراءها علي غرار النظام الذي انتقل إليهم ، مما يدل علي تـاثر البربر الكبير بالإسلام ونظامه وثقافته ، وقد شجع بعد إفريقيا عن مقر الخلافـة الإسلامية في الشرق علي استقلال كثير من الانظمة في شمال وغرب إفريقيـا علي غرار الدولة الفاطمية في مصر مثل دولة الأدارسة في المغرب الاقـصي سنة 171هـ التي بسطت سلطانها جنوب المغرب الأقصي فـي اتجـاه بـلاد السودان وكانت دولة دعوة انتشرت الثقافة الإسلامية واللغة العربية فـي ظلهـا

جنوبا وقد امتد نفوذ الأدارسة إلي منطقة درعه التي كانت تقع علي طريق القوافل المتجه إلي منطقة نهر النيجر [1] .

مهدت هذه الدولة الطريق أمام القبائل الصحراوية إلي الانتقال – عبر القوافل التجارية – بالثقافة الإسلامية إلي بلاد السودان فكان لها دور بارز في انتقال الثقافة الإسلامية جنوب الصحراء.

وفي أواخر القرن الثاني للهجرة قامت أيضا دولة الأغالبة التي استقلت بالولاية والدولة في منطقة القيروان التي اتخذوها عاصمة لهم.

وفي ظل حكم الأغالبة ازدهرت الثقافة الإسلامية في القيروان وازدهر العلم وكثر العلماء وانتشر ايام حكمهم المذهب المالكي الذي انتشر ايضا في بلاد السودان فيما بعد ، وفي أيام حكمهم كان قد قدم إلي بلاد المغرب حوالي ثلاثين فقيها كلهم لقي مالكا ونقل عنه ، وكان لهؤلاء الفقهاء أثرهم في إنتشار الفقه المالكي في بلاد المغرب والسودان [2] . وانتشار الإسلام في المنطقة بصفة عامة.

انتقل هذا المد من الأنظمة المستقلة إلي الجنوب حيث قامت إمبراطورية (اودغست) التي كانت تتحكم في مدخل بلاد السودان علي طريق القوفل وكانت تمثل نقطة الاتصال بين البربر وأهل السودان ولهذا كانت محل صراع بين القبائل الصنهاجية والقبائل السودانية وكثيرا ما كانت تخضع للمالك السودانية عندما ينتصر العنصر السوداني وكانت ايام أوجها ذات سيادة علي الكثير من ممالك السودان [3] . وهي منطقة استراتيجية علي طريق الصحراء الذي يربط بين المغرب الغربي وبلاد السودان ولعلها كانت تمثل الجسر الذي يصل بين بلاد السودان وبلاد المغرب فإذا علمنا ان قبيلة (لمتونة) التي كان لها

---

1 ابن خلدون عبدالرحمن المغربي : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر ، دار الكتاب اللبناني بيروت 1967م ص 911 - 913

2 حسن عيسي عبدالظاهر ، مرجع سابق ص 80

3 ابوعبدالله البكري ، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب ، مرجع سابق ، ص 159

شرف انتقال الإسلام إلي بلاد السودان بقيادة زعيمها عبدالله ابن يسن كانت تسيطر علي مدينة (اودغست) في أيام ازدهارها بصفة خاصة استطعنا ان نقول أن هذه الامبراطورية كانت قد مثلت في فترات ازدهارها حلقة الوصل بين بلاد السودان والمغرب العربي وهي التي مهدت الطريق لحركة المرابطين التي قادها عبدالله بن يسن ولذلك كانت مدينة (اودغست) من اهدافها الأولي لأنها كانت آنئذ تحت حكم الممالك السودانية الوثنية فاستعادها عبدالله بن يسن في بداية صراعة مع مظاهر الإنحراف والوثنية في المنطقة في فجر حركة المرابطين[1] .

حركة المرابطين

ارتبطت حركة المرابطين التي قادتها القبائل البربرية منذ نشاتها الأولي بالدعوة إلي الإسلام وتاثرت تاثرا مباشرا بثقافة (الإصلاح) وكانت من بدايتها حركة بعث وتصحيح اكثر من كونها حركة فتح ، فالإسلام وثقافته كان قد دخل في المنطقة التي كانت تستهدفها الحركة منذ زمن بعيد كما مر ولكنه كان مشوبا بالبدع والممارسات الوثنية هذا فضلا عن وجود الوثنية جنبا إلي جنب مع الإسلام في أغلب المناطق [2].

فالحركة في جوهرها حركة ترسيخ للعقيدة وتصحيح لممارسات الناس الذين كانوا يخلطون الإسلام بالبدع خاصة عند قبائل الصحراء ولهذا كان مبدا نشاط عبدالله بن يسن بين قبيلة (جدالة) ذا طابع ثقافي وعندما عجز عن مجاهدة البدع والوثنية لجأ إلي فكرة الرباط [3]. ولم تكن فكرة الرباط التي لجأ إليها بن يسن جديدة من نوعها وإنما كانت ممارسة راسخة في بلاد المغرب العربي إذ أن وجود عبدالله بن يسن زعيم الحركة نبع من شيخ بربري مرابط وهو الشيخ

[1] عمر احمد سعيد الشيخ عبدالله بن فودي اسهاماته في خدمة الثقافة الإسلامية – رسالة دكتوراة غير منشورة جامعة إفريقيا 2001

[2] N. Leveteion , Ancient Ghana & Mali , London 1964 P. 35

[3] توماس ارنولد : الدعوة إلي الإسلام ، مرجع سابق ص 351

وحاج بن زالوا اللمتوني شيخ رباط السوس الأقصي الذي زاره الشيخ يحيي بن إبراهيم أحد زعماء قبائل صنهاجة الصحراوية في طريق عودته من الحج وطلب إليه أن يرسل معه أحد تلاميذه ليعلم القبائل الصحراوية[1] . فالأساس الرئيسي لبعث عبدالله بن يسن إلي قبائل الصحراء كان ثقافيا في المقام الأول وقد تم اختيار عبدالله بن يسن علي هذا الأساس إذ عرف في زمانه عندهم بالزهد والتقوي والورع كما عرف بالتفقه في الدين ومعرفة الشريعة [2].

ومفهوم الرباط الذي قامت عليه الحركة يعني الاستعداد للجهاد ، والمرابطون ماهم إلا رهبان أخذوا علي أنفسهم عهد الدفاع عن الدين باعداد أنفسهم للشهادة في سبيل الله بزعامة شيخ [3]. والرباط من معانيه أيضا جهاد النفس والمقيم فيه مجاهد نفسه بالالتزام بقواعد صارمة وتربية قوية يتسلح المرابط فيها بسلاح العقيدة وعلوم الإسلام[4] .

وكانت الرباطات في بلاد المغرب والصحراء – تم في بلاد السنغال وغرب إفريقيا عامة فيما بعد – تبني بصورة عسكرية تمكنها من مواجهة الأعداء وهذا واضح من شكل الرباط الذي وصفه المؤرخون ، غير أن كثيرا من المؤرخين خاصة الغربيين منهم في تركيزهم علي الجانب العسكري من حركة المرابطين ومؤسساتها قد أهملوا كثيرا الجانب الثقافي الذي قامت به هذه الحركة عموما والرباطات التي أسسوها بصفة خاصة . وذلك لأن معظم هذه المؤسسات التي كانت تقع علي طرق القوافل التجارية وقوافل الحج كانت تقدم للتجار والحجيج القادمين من الجنوب كثيرا من الخدمات التعليمية مثل الوعظ والتعليم ومدهم في طريق عودتهم إلي بلادهم بالمؤلفات الإسلامية التي

---

1 د. محمد عبدالهادي : شعيرة المرابطين تاريخهم السياسي ط 1 مكتبة القاهرة 1969م ، ص (10- 15)

2 توماس أرنولد ، مرجع سابق ص 351

3 Short Encyclopedia of Islam , London 1974 .P.473

4 هذا رأي مجموعة من العلماء نقلا عن الدكتور فضل كلود : الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لامبراطورية كانم ، رسالة دكتوراه غير منشورة جامعة الازهر 1976 م صفحة 149

كانت تنسخ داخل الرباط [1]. وهذا لعمري عمل ثقافي للقلم فيه القدح المعلي في نشر الإسلام .

ويرجع إنشاء هذه الرباطات علي طرق القوافل بهذه الصورة إلي عصر مبكر حيث يروي أن أول رباط أنشيء في المغرب العربي كان في اواخر القرن الثاني للهجرة حوالي عام 181هـ وهو رباط قصر طرابلس ثم تبعته أربطة أخري كثيرة في منطقة السوس وجبل طارق وأطراف الصحراء[2] .

وليس هناك من شك في أن هذه المؤسسات كانت قد لعبت دورا كبيرا جدا في نشر الثقافة الإسلامية في بلاد السودان وليس مستبعدا أن يكون الهدف الاولي من إنشائها هو نشر الثقافة الإسلامية عبر طرق القوافل التي كانت تنقل الحجيج والتجار المسلمين والدعاة والكتب إلي العمق الإفريقي .

غير أن حركة المرابطين كان لها دور كبير في نقل هذه المؤسسات الدعوية إلي بلاد السودان فقد روي المؤرخون أن الرباط الذي بناه عبدالله بن يسن زعيم حركة المرابطين في تلك المنطقة كان ذا أثر بالغ في نشر الثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا والساحل الغربي فضلا عن كونه مركزا قويا لثورة المرابطين من بربر (لمتونة) [3] .

بدأت حركة المرابطين التي تزعمتها قبيلة لمتونه وهي فرع من صنهاجة نشاطها ضد بعض القبائل البربرية الاخري خاصة قبيلة جدالة التي انتشرت فيها الكثير من البدع الشيطانية المتعارضة مع عقيدة الإسلام ثم اتجهت الحركة شمالا فأخضعت المغرب العربي ومناطق شمال الصحراء ثم اتجهت جنوبا إلي منطقة السنغال ومملكة غانة التي سقطت في ايدي المرابطين بقيادة قائدها أبي بكر عام 1076م [4] .

1 نفس المرجع السابق والصفحة
2 نفسه المرجع والصفحة
3 Short Encycolopedia of Islam P. 474 مرجع سابق
4 F. A Ajayi & A crowder : History of West Africa , P. (130- 131) مرجع سابق

كان لحركة المرابطين اثر كثير كبير في نشر الإسلام في غرب القارة الإفريقية بل إن بعض المؤرخين ليربط ربطا قويا بين دخول الإسلام إلي منطقة السودان الغربي وحركة المرابطين (1) . كما أن لهــذه الحركــة – بجانــب جهودهــا العسكرية – أثرا كبيرا في الإنتشار السلمي للإسلام في إفريقيــا عــن طريــق الدعوة ونشر اللغة العربية والعلوم الإسلامية في المنطقة إذ علي الرغم مــن أن مملكة (غانة) قد استعادت سلطتها بعد عشرة أعوام فقط من ســقوطها علــي أيدي المرابطين فإن دخول الإسلام فيها قد أدي بغير شك إلي انتشار ثقافته فــي الاقطار المجاورة لها أضف إلي ذلك أن المرابطين أنفــسهم كــانوا بعــد زوال سلطتهم قد رجعوا إلي الزوايا وعمدوا إلي نشر تعاليمهم الروحية ســلميا فــي المنطقة خاصة إذا علمنا أن طابع الزهد في الدنيا الذي لازم حركة المــرابطين منذ إنشائها كان فعالا في نشر الإسلام بالقدوة والموعظة الحسنة وهذا ربما كان له أثره في نشر الإسلام بين الخاصة من الناس ، وقــد أشــار الــدكتور علــي أبوبكر أن اعتناق ملك مالي الإسلام ربما كان علي يد أحد المرابطين وهذا مما يؤكد دور المرابطين السلمي في نشر الإسلام ، هذا الطابع قد امتــدت جــذوره عميقة في المنطقة فيما بعد متمثلة في الحركات التي قادها زعماء مــن بــلاد السودان وبلاد هوسا وغيرها كان لها اثرها الكبير في نشر الثقافــة الإســلامية بالطرق السلمية لاحقا .

وبالجملة فإن حركة المرابطين في الكثير من مفاهيمها ومضامينها الثقافية كانت قد تأثرت بثقافة الدعوة إلي الإسلام ومن ثم لعبت دورا كبيرا عبر حركتها فــي نشر هذه الثقافة في منطقة غرب إفريقيا.

ففكرة التربية الروحية والتعليم التي تكمن وراء فكــرة المرابطــة ذات جــذور إسلامية ولكنها اتخذت طابع العزلة في الرباط خوفا مــن تــأثير الإنحرافــات المتفشية في المجتمع وهذا واضح من المراحل الأولي لحركة عبدالله بن يــسن

---

1 K. O numibio : Histroy of West Africa , Onitsha P. 117 بدون تاريخ

بين القبائل الصحراوية حيث لجأ بعد عجزه عن مناهضة الانحرافات إلي تربية النفس مع تسعة من أعوانه بغرض تهذيب النفس وتدريبها، أما فكرة الهجرة التي قام بها إلي منطقة السنغال مع أصحابه حيث أسلموا انفسهم إلي عبادة متصلة خرجوا بعدها دعاة أقوياء ينشرون الإسلام . فهي فكرة أصيلة تتبعت خطوات الرسول صلي الله عليه وسلم واتبعت سبله ومنهجه في الدعوة.

والجدير بالذكر أن الحركات التي قام بها أهل السودان الغربي لنشر الإسلام في المنطقة فيما بعد ، كانت قد اتبعت نفس المنهج أضف إلي ذلك أن فكرة الرباط التي أدخلها عبدالله بن يس في بلاد السودان كانت قد انشرت في منطقة السودان الغربي وبلاد هوسا بصفة خاصة فقد اشار المؤرخون إلي ان الحاكم الثالث من اسرة البيض الحاكمة في (كاسينا) حوالي سنة 1524م بعد ثلاثة قرون من فترة المرابطين تقريبا كان قد بني سور مدينته علي شكل رباط وكان يحمل اسم المرابط ، ولم يكن ذلك اللقب كما يري (Hunwick مجرد لقب فخري (1) .

ولابد ان نشير – ونحن نتحدث عن دور المرابطين في نشر الثقافة الإسلامية سلميا في بلاد السودان – إلي أن معظم الهجرات التي يشير إليها المؤرخون في أواخر القرن الحادي عشر إلي بلاد هوسا وماجاورها كانت تأتي من منطقة السنغال مما يؤكد دور المرابطين في أعداد العلماء الذين لعبوا دورا كبيرا في بلاد السودان ومن ثم تأثرت بهم حركات كبري قادها شيوخ وعلماء في المنطقة لاحقا .

حركة الموحدين

بالرغم من ان حركة الموحدين بقيادة المهدي : بن تومرت المراكشي قد انحصر نطاقها السياسي في المغرب العربي ومنطقة الصحراء ، فإن نفوذها الثقافي قد امتد جنوبا إلي المناطق الواقعة جنوب الصحراء وذلك لأن قوام

F> A Ajayi & Croder : History of West Africa , P. 117 [1]

الحركة كان من القبائل الحصراوية البربرية التي كانت تسيطر علي طرق التجارة المتجهة جنوبا إلي غرب إفريقيا وبلاد السودان .

وابن تومرت هو أبوعبدالله محمد بن تومرت من قبائل البربر استهل حركته بالدعوة إلي العودة إلي حياة الرسول وأصحابه ، ثم سافرعام 1110 إلي المشرف إلي الحجاز ثم إلي دمشق وبغداد ورجع إلي المغرب عام1120 م مركزا دعوته في تلمسان وفاس ومراكش ثم هاجر عام 1125م إلي منطقة تتمثل في جبال أطلس متأسيا بهجرة الرسول(ص)وكانت وفاته عام 1128م [1].

وقد كان للرحلة التي قام بها ابن تومرت إلي المشرق دورا كبيرا في تكوينه الثقافي بالأخص رحلة إلي منطقة بغداد التي كانت في أوج عظمتها وازدهارها الثقافي خاصة في المجال الروحي حيث راجت الطرق الصوفية ، يقول الدكتور أحمد توفيق عياد:

أما في شمال إفريقيا فقد ساهمت الحركة الصوفية في ثورة الإصلاح الديني الذي قام به محمد بن تومرت المراكشي وهو من أصل بربري تأثر بالغزالي الذي اتصل به في رحلته إلي المشرق[2] . وبالرغم مما يعتري التقاء ابن تومرت بالإمام الغزالي من شك ناجم عن العامل الزمني ، إذ أن الغزالي قد توفي عام 505 هـ في حين أن زيارة ابن تومرت للمشرق كانت الفترة بين 510 إلي 515هـ فإن أثر الغزالي في ثقافة بن تومرت لايمكن تجاهله خاصة الأثر الروحي وفكرة العودة إلي نهج الرسول وأصحابه التي تمثلت في التجاء الغزالي إلي بيت المقدس والتجاء ابن تومرت إلي جبال اطلس [3] .

---

1 Gemille Free Man : Chronology od African History ,Oxford 1973 Yr. 1128

2 أحمد توفيق عياد : التصوف الإسلامي تاريخه ومدارسه وطبيعته وأثره ، القاهرة 1970 ص 287

3 عمر احمد سعيد عبدالله بن فودي مرجع سابق ص (49)

كان ابن تومرت ينشر تعاليمه باللغة البربرية [1] . ثم ألف بها كتبا شرح فيها مبادىء الإسلام[2] . فأصبح ذلك تقليدا سار عليه عدد من الذين عملوا علي نشر الثقافة الإسلامية في بلاد السودان بما فيهم قادة حركات الجهاد اللاحقة في المنطقة .

كان لابن تومرت مكانة روحية عظمي عند قبائل البربر إذ كان ينظر إليه باعتباره الوريث الروحي للرسول (ص) واعتبرت هجرته شبيهة بهجرة النبي وأطلق علي أنصاره اسم (جماعة تنمال) [3] .

وهذا التقليد أيضا كان مما يميز كثيرا من حركات الجهاد التي قادها أمثاله من الشيوخ لاحقا وظهرت في كتابات عدد منهم ما يبين انتقال الثقافة بكثير من تفاصيلها من شمال إفريقيا إلي بلاد السودان . نتجت عن حركة هذا الزعيم البربري دولة الموحدين التي بسطت سلطاتها علي شمال إفريقيا ومنطقة الصحراء وبلاد الاندلس فترة طويلة وخلفت آثارا ثقافية أهمها ازدهار الحركة الصوفية التي انتظمت المنطقة حيث بنيت مدينة الرباط عام 1163م [4] في عهد الشيخ عبدالمؤمن الرجل الثاني في الحركة ، وفي عهدها ظهرت شخصية الصوفي المغربي الكبير الغوث أبومدين الفاسي[5] . الذي تردد ذكره كثيرا عند زعماء حركات الجهاد في بلاد السودان وليس من شك في أن حركة الموحدين أيضا قد انتقلت آثارُها إلي بلاد السودان عبر التجارة والدعاة فقد سجل Freeman وجود اتصال مباشر بين مملكة كانم وشمال إفريقيا في عهد الموحدين والعصور التالية لهم [6].

N.lovtzion : The Cambridge History of Africa , Cambridge 1978 P. 104

Grenille Freeman Yr. 1163

توماس ارنولد مرجع سابق ص 353

Jamil Abul Nasy : Ahistory of the Maghrib Cambridge 1978P 104

أحمد توفيق عياد مرجع سابق ص 594 توفي ابومدين الفاسي عام 1193م انظر Freeman

Grenille Freeman Yr. 1137 مرجع سابق

وقد أشار الدكتور السراج إلي اسرة المقومين 1150 – 1250م التي بسطت سلطانها علي منطقة التبستي واهير في الشمال الغربي من بحيرة تشاد بأنهم اشراف الزغاوة من الطوارق[1] . ولايستبعد أن هذه القبيلة من البربر كانت تمثل حلقة الوصل بين شمال إفريقيا وممالك كانم وبرنو .

ولابد من التركيز علي مايوجد من تشابه واضح بين دعوة الموحدين والدعوات التي ظهرت فيما بعد في غرب إفريقيا وبلاد هوسا وكان لها دور كبير في نشر الثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا وبلاد السودان فإن هذه الحركات الإسلامية التي قادها زعماء من إفريقيا كان لها دور كبير في إنتشار الثقافة الإسلامية في بلاد السودان الغربي ساهم هذا الدور بصورة واضحة في ازدياد قبول اهل المنطقة لهذه الثقافة عند الحكام ثم عند الرعية فقد ازداد اقبال ملوك السودان علي الإسلام وثقافته في القرن الحادي عشر والثاني عشر حيث أسلم عدد من ملوك الممالك الكبري واهتموا بأهل الثقافة الجديدة ففي عام 1200م اسلم (كمبورو) ملك (جني) وجمع إليه حوالي 4200 عالما من المسلمين وطلب منهم أن يدعوا الله لنصرته وهدم قصره وبني مسجدا[2] عظيما أصبح فيما بعد مركزا ثقافيا كبيرا في المنطقة .

ثم ازدهرت مدينة (تمبكتو) في القرن الثالث عشر باعتبارها مركزا ثقافيا كبيرا بجامعتها (سنكري) التي سارت علي قرار جامعة الأزهر والقيروان والزيتونة في الشمال الإفريقية فكان يفد إليها العلماء والصالحون وازدهرت فيها تجارة الكتب وقامت مراكز ثقافية أخري في (جاو) وغيرها من بلاد السودان الغربي وتبعتها أخري في كاسينا وصكتو وغندو في بلاد هوسا ، مما يؤكد الدور الطليعي للقلم في الحركات الإسلامية في إفريقيا .

1 الدكتور زين العابدين عبدالحميد السراج ، دولة كانم الإسلامية مرجع سابق ص 53
2 تومامس ارنولد ، مرجع سابق ص (354 – 355)

أما القرون اللاحقة بعد الفتح والحركات التي نشرت الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء فقد شهدت حركة ثقافية كبري كان للقلم الدور الحاسم في نشر الإسلام وثقافته في المنطقة حتي في حركات الجهاد اللاحقة في مالي والسنغال كان القلم والكتاب العامل الأساسي في نجاحها[1] .

شرق أفريقيا :

أما بالنسبة لشرق إفريقيا فإن ارتباط العنصر العربي بها وارتباطها فقوي وموغل في القدم أيضا ربما يرجع إلي اكثر من 2000 عام [2]. عن طريق البحر الأحمر الذي لم يكن موجودا ولم يشكل بعد وجوده حاجزا بين المنطقتين[3] . ولهذا يؤكد الدكتور محي الدين صابر أن العرب جزء من إفريقيا منذ أن كانت وكانوا وجودا متكاملا جغرافية وبشرا[4].

كانت العلاقة بين العرب وشرق إفريقيا قوية قبل الإسلام لدرجة أن ملوك الحبشة كانوا يعتبروا جنوب الجزيرة جزءا من بلادهم وولاية من ولايات امبراطوريتهم العظمي [5] . وكان الحضور الإفريقي في جزيرة العرب كبيرا قبل الإسلام بسبب التداخل العربي الافريقي عبر التجارة يدل علي ذلك وجود الأحباش الذين خلفهم جنس ابرهة في مكة قبيل البعثة النبوية .

لذلك كانت بلاد الحبشة معروفة بين المسلمين منذ بداية الدعوة معرفة جيدة أرضا وملوكا وقوما ولهذا أمر الرسول (ص) اصحابه بالهجرة اليها واصفاً لها بأنها " أرض صدق " ، وإن ملكها " لايظلم عنده أحد " .

1 عبدالله عبدالرازق دولة صكتو من 1817- 1903 القاهرة 1982م ص

2 محمد حسين شريف في العلاقة بين الثقافة العربية والثقافت الإفريقية تحقيق يوسف فضل حسن تونس 1985 ص 60

3 يوسف فضل نفس المرجع ص 15

4 د. محي الدين صابر ، نفس المرجع ص 3

5 لذلك رد الملك الاثيوبي حملة تأديبية عبرت فيها سفنه البحر الاحمر في القرن الرابع الميلادي ودحرت ذي نواس الذي عذب نصاري نجران خلفت هذه الحملة العديد من الافارقة في المنطقة لأنه ترك بها حامية عسكرية

وعندما هاجر أصحابه تلقاهم ملك الحبشة بالترحاب ورفض أن يسلمهم لقريش التي لاحقتهم مع صلته الحميمة بقادة قريش .

لكل ذلك جاء دخول الإسلام إلي افريقيا الشرقية منذ فجر الدعوة للإسلام أي قبل دخوله إلي شمال إفريقيا والمغرب بعقدين من الزمان علي الاكثر ، ولهذا كان اتصال الإسلام بافريقيا الشرقية منذ بدايته سلميا وظل كذلك إلي فترة الحروب الصليبية وذلك بسبب حديث الرسول صلي الله عليه وسلم الذي نهي فيه عن قتال الاحباش . ومعروف ان لفظ الحبش كان يشمل سكان إفريقيا الشرقية ، وربما يفسر ذلك بالطبع توقف عمرو بن العاص التوغل جنوبا في الدولة المسيحية حيث اكتفي بتوقيع معاهدة البقط معها عام 652م .

اتخذ انتشار الإسلام جنوبا بعد الاتفاقية الطابع السلمي عن طريق التجارة والهجرات والتمازج العرقي الذي أكده المؤرخون حيث انتشر الإسلام والمسلمون جنوبا حتي مملكة علوة ثم قامت فيما بعد الممالك الإسلامية في الفتح حيث تدفق العلماء والفقهاء إليها[1] مما أسهم بصورة كبيرة في نشر الإسلام في المنطقة فكان للقلم بالطبع دوره الكبير في ذلك .

اما بقية انحاء إفريقيا الشرقية التي كانت تسيطر عليها الامبراطورية المسيحية في اثيوبيا فلم يذكر في تاريخ الإسلام في قرونه الأولي أن اتجه الفتح اليها قط ولم يذكر شيء عن محاولة لغزو الحبشة مع ماعرف من محاولات الحبشة الهجوم علي بعض مواقع المسلمين والتحرش بها .

وحين هاجم الأحباش ميناء جدة 641 م رد عليهم المسلمون بالهجوم علي ميناء عدوليس في الجانب الغربي من البحر الأحمر لتأمين هذا الجانب في الوقت الذي كان الفتح يتجه شمالا إلي بلاد الروم .

---

[1] يوسف فضل حسن مرجع سابق ص 45

كان للتجارة والهجرات والتماذج العرفي ايضا دور كبير في انتشار الإسلام في إفريقيا الشرقية ، مما ادي فيما بعد إلي قيام دول الطراز الإسلامي بين الحبشة والصومال[1] .

اسهمت هذه الدول اسهاما كبيرا في نشر الإسلام في إفريقيا الشرقية حيث كان للقلم الدور الطليعي في ذلك ممثلا في قيام المراكز الإسلامية لاحقا في هرر وكلوه ومقديشو وزنجبار وغيرها من مناطق الشرق الإفريقي .

استمرت العلاقة بين المسلمين في هذه الدويلات وغيرها وبين الدولة المسيحية سلمية طيبة إلي أن جاء الغزو الأوربي فأغري الأحباش بالاغارة عليها وسبي النساء المسلمات وقتل الملوك[2] . مما دفع القائد الإسلامي العفري أحمد قرني (الاعسر) إلي حمل السيف علي الحبشة وكان ذلك أول حرب عامة مع المنطقة لاشك وراءها العامل الصليبي حيث جاء الأسبان والبرتغال والإيطاليون إلي المنطقة ومعهم الاهداف الصليبية العليا وهو أمر مرتبط بما ذكرناه عن صلة الفتح الإسلامي بالروم بصفة عامة .

الخاتمة :

يتضح مما سبق أن انتشار الإسلام في إفريقيا لم يكن عن طريق السيف والحرب الذي لازم فتح بلاد الروم وإنما تضافرت عوامل كثيرة أدت إلي هذا الإنتشار تتمثل هذه العوامل في هجرات الجاليات المسلمة ، وحركة التجارة مع إفريقيا ونشاط الدّعاة الأفارقة انفسهم الذين حملوا مشعل الثقافة الإسلامية إلي إفريقيا ودخول الملوك والقادة والمسلمين طوعا في الإسلام والعمل علي نشره في بلادهم .

---

1 يوسف فضل حسن المرجع السابق ص 51

2 انظر عرب فقيه فتوح الحبش الذي روي احداث الفتح

يقسم البروفيسور يوسف فضل [1] انتشار الإسلام في إفريقيا إلي ثلاثة مراحل رئيسية :

المرحلة الأولي : يغلب عليها الطابع السلمي ودعامتها التجار وفي ذلك يقول ،وكما هو الحال في سودان وادي النيل كان التجار يجمعون بين دور التاجر والداعية ونتيجة لهذه الروابط السلمية اتسع نطاق التجارة وزادت الهجرات.

المرحلة الثانية : يغلب عليها الحرب – كما يري البروفيسور يوسف وهي حركة المرابطين وبالطبع بعض الحركات المشابهة ، وقد أشرنا إلي الدور التعليمي الثقافي لحركتي المرابطين والموحدين مما يؤكد دورهما السلمي الذي كان للقلم فيه الدور الفاعل.

المرحلة الثالثة

مرحلة تجمع بين الوسيلتين ومرتطبة بالدعوة إلي الإسلام وهي المرحلة التي انتقلت بعدها القيادة إلي الزعامات المحلية وقيام الممالك الإسلامية في مالي والسنغال ، وامارات الهوسا وغيرها وهذه كما يري البروفيسور يغلب عليها التسامح الديني.

من خلال هذا التقسيم اضافة إلي ما أوردنا من نقاش للفتح الإسلامي وانتشار الإسلام يتضح أن انتشار الإسلام في افريقيا جاء في مجمله بالقلم لا بالسيف لأن استخدام السيف كان له مبررات تعود إلي اسباب خارجة عن جوهر الدعوة إلي الإسلام ، هذا فضلاً عن أن الانتشار الحقيقي للإسلام وثقافته جاء في مراحله المتاخرة عن طريق القلم وحده ممثلا من المراكز الثقافية الكبري وجهود العلماء الأفارقة ومؤلفاتهم التي انتشرت في المنطقة وأرست قواعد الإسلام فيها .

[1] بروفيسوريوسف فضل حسن ، انتشار الإسلام في إفريقيا الخرطوم 1979 ص 17 - 18